التراتيب الإدارية لأهل الذمة في الدولة العباسية

يقصد بالتراتيب الإدارية الوظائف الرسمية التي تعتبر جزءا من هيكلية الدولة، وهذه الوظائف يشغلها مواطنو الدولة، وهي تدل على مدى انخراط أصحابها في الهيكلية العامة وصنع القرارات. لذلك اخترت إلقاء ضوء على بعض الوظائف التي شغلها أهل الكتاب في الدولة العباسية بهدف بيان المغالطات التي تطلق بحق الدولة المسلمة عبر التاريخ، ونفي الاتهامات بإقصاء المخالفين كما يروج له البعض، وأفضل طريقة لبيان عدم صوابية هذه الاتهامات هو النظر في التراتيب الإدارية زمن الدولة الإسلامية، وبيان مكونات المجتمع فيها.

واختيار الدولة العباسية كونها كانت فترتها أكثر فترات التاريخ الوسيط انفتاحا على العالم وعلى العلوم، وأطولها مدة، فقد بدأت سنة 132 هـ / 749م ، واستمرت حتى سنة 656هـ / 1517م، عام دخول هولاكو بغداد، وبعدها باتت الخلافة العباسية اسما على ورق.

وفي تلك الفترة كانت بغداد – مركز الخلافة –؛ وعلى الرغم من أن المسلمين هم من أنشؤوها؛ إلا أنها كانت قبل ذلك عبارة عن سوق تجاري تنزله القوافل، لكنها كانت تضم أكثر من خمسين ديرا مبنية على ضفاف الأنهر، كانت تعتبر منتزهات أهل بغداد لجمال مواقعها، وقد حرص الخليفة أبو جعفر المنصور على إدخالها في نسيج المجتمع البغدادي الناشئ.

ونظرة في كتاب (الديارات) لأبي الحسن الشابشتي المتوفى سنة (388هـ / 998م) تعطينا فكرة ضافية عن الدور الكبير الذي كان لهذه الأديرة في حياة العراقيين، بل وحياة رعايا الدولة في العراق والشام ومصر.

لكننا سوف نركز على أثر المسيحية في الحياة العامة في العراق وعلى الخصوص زمن العباسيين. كما أننا سوف نعرض للوظائف العامة التي تدخل في هيكلية الدولة للنصارى من خلال ما جاء في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي، حيث أورد فيه مراسيم تتعلق بتثبيت البطاركة الذين يتم انتخابهم من قبل رعايا كنيستهم، كما ورد فيه تعريف بمذاهب النصارى الذين كانوا في بغداد، وما هي مراتبهم الدينية، وكيف كانوا يخاطبون في المراسلات الرسمية.

1 – من هم أهل الكتاب؟

اختلف العلماء في المقصود بأهل الكتاب على أقوال عدة، فمنهم من اعتبر أن تلك اللفظة خاصةٌ بمن يؤمن بكتابٍ سماوي بذاته، وذهب آخرون إلى أنّ أهل الكتاب هم القوم الذين أرسل إليهم النبي عمومًا ولا تشمل من آمن بذلك النبي من غيرهم من الأقوام، وبيان ذلك فيما يلي :

ذهب فقهاء الحنفية إلى أنّ المراد بأهل الكتاب: كلّ من يؤمن بنبي ويقر بكتاب وديانة سماوية، سواءً بذلك أكان ذلك النبي مبعوثًا بالرسالة لقومٍ مُعيّنين أم أنه أرسل برسالةٍ عامة، ويدخل في أهل الكتاب اليهود والنصارى، ومن آمن بزبور داود – عليه السلام – ومن آمن بصحف إبراهيم – عليه السلام – وذلك لأن من آمن بتلك الكتب إنما هم يؤمنون بدينٍ سماوي منزلٍ بكتاب.

وذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنّ المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى بجميع فرقهم وجماعاتهم المختلفة ومن دخل في معتقدهم وآمن به دون أن يشمل ذلك غيرهم ممّن لا يُؤمن إلا بصحف إبراهيم وزبور داود، واستدلّ الجمهور على ذلك بقول الله تعالى:

﴿أَن تقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾، فلا يعتبر جمهور الفقهاء أنّ من أهل الكتاب إلا اليهود والنصارى، وإلى ذلك ذهب ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم من المفسرين، وأمّا باقي الديانات التي جاء بها الأنبياء ونقلوا إلى البشرية شيئًا عن السماء: كصحف إبراهيم وصحف داود، فقد كانت تلك النقولات مواعظ وأمثالًا لا غير، ولم تأتِ فيها أحكامٌ يَجب الالتزام بها، فلم يَثبت لها حكم الكتب السماوية الأخرى المُشتملة على أحكام وتكاليف كالتوراة والإنجيل .

قال الشهرستاني: (أهل الكتاب هم الخارجون عن الملة الحنيفية، والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام . وما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يُسمّى كتابًا، بل صحفًا).

ولعل قول الحنفية أولى، ذلك أن المواعظ والحكم التي جاءت في صحف إبراهيم وموسى هي تكاليف أخلاقية، وأحكام سلوكية، تشبه ما نزل من قرآن كريم في مكة المكرمة يُقَوِّمُ السلوك الاجتماعي مع تقويم المعتقدات.

ومع قناعتي بأن عبارة أهل الكتاب ليست قاصرة على اليهود والنصارى، إلا أنني في البحث سوف أركز على تراتيب النصارى الإدارية، مع شيء من ترتيب اليهودية، غير معرج إلى الصابئة وغيرهم من العقائد التي كانت موجودة في الدولة العباسية.

2 – إطلالة عامة على وضع النصارى في الخلافة العباسية:

في كتابه (مستقبل النصارى في الدولة الإسلامية)، لخص الدكتور راغب السرجاني وضع النصارى في الدولة العباسية، فذكر أنهم شاركوا في نواحي الحياة المختلفة؛ الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والعلمية، وفي المهن بصفة عامَّة ودونما تمييز، ودخلوا وظائف الدولة، وقد برزت كفايات أدبية في سلك الكُتَّاب وعُمَّال الخَرَاجِ، واستُقبِلُوا بالاحترام في بلاط الخلفاء، كما اعتُرِفَ لهم بقانونهم الديني، ورؤسائهم الروحيين[1].

وكان للنصارى النوبيين مركز خاص ممتاز في الدولة الإسلامية، فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم، وكان للضرائب عامل مِن قِبَلِه في بلاد الإسلام[2].

وقد أصدر الخليفة المقتدر في سنة (311هـ/ 923م) كتابًا في المواريث أمر فيه بأن «تَرَدَّ تَرِكَة مَنْ مات من أهل الذمة ولم يُخَلِّف وارثًا على أهل مِلَّتِه»[3]. على حين أن تركة المسلم الذي لم يترك وارثًا كانت تَرَدُّ إلى بيت المال[4].

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون النصارى أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخةً في الصنائع التي تُدِرُّ الأرباح الوافرة؛ فكانوا صيارفة وتجارًا، وأصحاب ضِيَاعٍ

---

[1] - ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص103.
[2] - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 76/1.
[3] - تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تأليف أبي الحسن الصابي، ص 270، وفيه بيان رفع الخليفة المظالم عن الناس في قضية التركات والمواريث.
[4] - آدم متز: الحضارة الإسلامية 59/1-62.

وأطباء، بل إِنَّ النصارى نظَّموا أنفسهم بحيث كان أكثر الأطباء والكَتَبَة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة.

وفي سنة (200هـ) أراد الخليفة المأمون أن يُصدر كتابًا لأهل الذمة؛ يضمن لهم حرية الاعتقاد، وحرية تدبير كنائسهم؛ بحيث يكون لكل فريق منهم -مهما كانت عقيدتهم، ولو كانوا عشرة أنفس- أن يختاروا بطْرِيقهم، ويعترف له بذلك، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شغبًا، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب[5].

3 – النصارى في الدولة الطولونية:

وبقيام الدول شبه المستقلة في مصر لم يتغير الوضع كثيرًا؛ فلم تتغير السياسة في مصر تجاه النصارى، ونستطيع أن نَلمَس حرص أمراء الدولة الطولونية (254-292هـ) على معاملة النصارى معاملة طيبة، بل ظلُّوا يعملون في الدواوين، وبأعمال الخراج، بل وشاركوا في أعمال الشرطة؛ للمحافظة على الأمن والنظام في البلاد.

وكان لابن طولون كاتبان نصرانيان؛ هما يوحنا وإبراهيم بن موسى، كما كان لوزير ابن طولون أحمد بن الماذراني كاتب نصراني يُسمَّى يوحنا، كذلك استعان الأمير ابن طولون بكثير من المهندسين النصارى في مشاريعه المعمارية؛ ومن هؤلاء سعيد بن كاتب الفرغاني، الذي بَنَى لابن طولون عين ماءٍ، كما شارك في بناء مسجد ابن طولون نفسه[6].

وقد سار الأمير خمارويه على نهج أبيه أحمد بن طولون في استخدام النصارى، فكان له كاتب نصراني يُدعى إسحاق بن نصر العبادي، فضلًا عن اعتماد خمارويه على أسقف (طما)،

---

[5] - آدم ميتز، الحضارة الإسلامية ص72، 73.

[6] - حسن علي حسن: أهل الذمة، ص131.

ويُدعى أنبا بخوم، الذي كان يمتلك عددًا كبيرًا من الغلمان؛ ومن ثَمَّ اعتمد عليه خمارويه هو وغلمانه في حراسة الحدود الغربية للبلاد.

هذا عدا عن الغرفة التي بناها لنفسه أعلى دير القصير، ويقع هذا الدير «في أعلى الجبل، على سطح قلته. وهو دير حسن البناء، محكم الصنعة، نَزِهُ البقعة. فيه رهبان مقيمون به. وله بئر منقورة في الحجر يستقى الماء له منها. وفي هيكله صورة مريم في حِجرها صورة المسيح عليه السلام. والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة» على ما ذكر الشابشتي في (الديارات)[7]. وقال: «وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات. وكان كثير الغشيان لهذا الدير. معجبًا بالصورة التي فيه»[8].

4 – النصارى في الدولة الإخشيدية:

وعلى خطوات الدولة الطولونية نفسها سارت الدولة الإخشيدية (323–358هـ) في معاملة النصارى؛ فكان أمراؤها يحرصون على معاملتهم معاملة طيبة، وقد استعانوا بهم في كافة الوظائف، وبخاصة الشئون المالية، وقد كان عامل الخراج الذي تولَّى خراج مصر للأمراء الإخشيديين في هذه الفترة ابن عيسى بقطر بن شفا.

ويلاحظ في هذا العصر استخدام الإخشيديين لليهود بجوار النصارى في شئون الإدارة وأعمال الحكومة، وكان من الشخصيات اليهودية البارزة في هذا المجال يعقوب بن كلّس اليهودي، من مستشاري كافور، ومن أقرب الناس إليه، ومن شدَّة إعجاب كافور الإخشيدي

[7] - ص 69.
[8] - المرجع السابق نفسه.

بابن كلّس[9] أمر جميع رؤساء الدواوين بألاّ يُصرَف درهمٌ أو دينارٌ إلا بتوقيع ابن كلّس، وذلك في سنة 356هـ[10].

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياءَ مختصَّة باليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها، وإنْ آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد، حتى كادت لا تخلو منها ناحية[11].

ويُذكَر أنه كان للخليفة الطائع (363–381هـ) كاتب نصراني. وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتخذ كلٌّ من عَضُدِ الدولة المتوفى عام (372هـ) في بغداد، والخليفة العزيز في القاهرة وزيرًا نصرانيًّا، وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البِيَعِ والأديرة، وفي إطلاق المال لفقراء النصارى، فأَذِن له[12].

5 – من تاريخ المسيحية في الدولة العباسية

[9] - أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر، تنظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان: 7 / 27 . وسير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي: 16 / 442.

[10] - المرجع السابق ص129-132، بتصرف.

[11] - آدم متز: الحضارة الإسلامية 74/1، 75.

[12] - المرجع السابق، ص90. وينظر الكامل في التاريخ أحداث سنة 369 هـ. ج 7 ص 370.

مواكب أعياد النصارى في العراق زمن الخلافة العباسية[13]:

أما الأعياد النصرانية التي كان يحتفل بها أهل العراق قبل الإسلام فكانت مسيحية كلها، وكان أهل بغداد مسيحيين ومسلمين يحتفلون في الأديرة بأعياد القديسين، وكان يوم أحد الشعانين عيد كبير للعامة[14].

ويبدو أنه من أعيادهم القديمة إذ كانت الوصائف في هذا العيد يظهرن في قصر الخلافة، مرتديات أفخر أنواع الثياب، وفي أعناقهن صلبان من ذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[15].

وفي يوم عيد الفصح، يقصد النصارى دير سمالو[16]الذي تحيط به المزارع والبساتين ويعد من متنزهات بغداد المشهورة ويشاركهم احتفالهم هذا المسلمين للفرجة والتنزه[17] كما ويحتفل

---

13 - من تاريخ المسيحية في ظل الدولة الإسلامية

14 - الشابشتي، الديارات، ص: 66،64، 98، 129، 176، 177.

[جاء في وفيات الأعيان (3 / 319): الشابشتي : أبو الحسين علي بن محمد الشابشتي (2) الكاتب؛ كان أديباً فاضلاً، تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر، فولاه أمر خزانة كتبه، وجعله دفترخوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه، وكان حلو المحاورة، لطيف المعاشرة، وله مصنفات حسنة، منها: كتاب " الديارات " ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية وجميع الأشعار المقولة في كل دير وما جرى فيه، وهو على أسلوب " الديارات " للخالديين وأبي الفرج الأصبهاني، مع أن هذه الديارات قد جمع فيها تواليف كثيرة، وله كتاب " اليسر بعد العسر " وكتاب " مراتب الفقهاء " وكتاب " التوقيف والتخويف " وله مكاتبات ومراسلات مضمنة شعراً وحكماً، وغير ذلك من المصنفات في الأدب وغيره. وتوفي سنة تسعين وثلثمائة، وقال الأمير المختار المعروف بالمسبحي: توفي سنة ثمان وثمانين وثلثمائة، وزاد غيره فقال: ليلة الثلاثاء منتصف صفر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بمصر].
وفي معجم الدباء لياقوت الحموي جاء اسمه مختلفا: (6 / 2426): محمد بن إسحاق أبو عبد الله الشابشتي: صاحب خزانة كتب العزيز بن المعز بمصر والمتوالي عرضها، وكان من أهل الفضل والأدب، مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة للهجرة في أيام الحاكم بن العزيز وله عدة تصانيف منها: كتاب الديارات]. فالاسم مختلف وكذلك تاريخ الوفاة، وفحوى الترجمة واحد.

15 - عبد الرؤوف، الحواضر الإسلامية الكبرى، ص200.

16 - دير سمالو: وهو عند باب الشماسيه وبالجانب الشرقي من بغداد الذي يحيط به المزارع والبساتين ويعد من متنزهات بغداد المشهورة ويشاركهم احتفالهم هذا المسلمين للفرجة والتنزه، الشابشتي، الديارات، ص341-342.

17 - متز، الحضارة الإسلامية، جـ2، ص478.

النصارى بأحد أعيادهم في دير الثعالب[18]، ويشاركهم المسلمون أيضًا الاحتفال بهذا العيد، ويشمل المكان الذي يقع فيه الدير البساتين التي تضم أنواع الأشجار والرياحين[19].

أما عيد دير أشموني[20] فكان في اليوم الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) وهو من الأيام العظيمة في بغداد يجتمع أهلها فيه وخصوصًا أهل الطرب واللهو، ويتنافسون فيما يظهرونه هناك من زيهم، ويباهون بما يعدونه، ويعمرون شطه وديره وحافاته، ويضرب لذوي البسطة منهم الخيم والفساطيط، ويعزف القيان ويتمتع الناس هناك باللهو والطرب والراحة ويكثر الغناء[21].

ومن أعياد النصارى ببغداد أعياد الصوم الكبير يقسمونها حسب أحاده: ففي يوم الأحد الأول منه (عيد بدير العاصية)[22] وهو على ميل من سمالو، والأحد الثاني بدير الزريقية[23]، والأحد الثالث بدير الزَنْدَوَرد[24]، والأحد الرابع بدير درمالس[25]، وعيده أحسن الأعياد إذ يجتمع نصارى بغداد إليه ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والطرب إلا تبعهم، ويقيم الناس فيه عدة أيام[26].

وغالبًا ما كان الرهبان والكهنة يخرجون في موكب ديني وعلى ألبستهم الكنسية شارات الصليب وبين صفوفهم الأعلام وبأيديهم المجامر[27].

---

18 - دير الثعالب: دير مشهور، بينه وبين بغداد ميلان أو أقل، في كورة نهر عيسى، بالجانب الغربي من بغداد، ينظر: الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص650.

19 - الشابشتي، الديارات، ص24.

20 - دير أشموني: دير بأسم المرأة التي بنته وهو بقطر بل غربي نهر دجلة. أنظر: المصدر السابق، ص44.

21 - الشابشتي، الديارات، ص44-45.

22 - دير العاصيه، وهو على ميل من سما لو، أنظر الديارات، ص3.

23 - دير الزريقية: من اديرة بغداد قرب الشماسية. المصدر نفسه، ص3.

24 - دير الزندورد: هو في الجانب الشرقي من بغداد، أرضها مليئة بالفواكه. ينظر: ملاحق كتاب الديارات للأستاذ كوركس عواد، ص338.

25 - دير در مالس: عند باب الشماسيه ببغداد، المصدر السابق، ص3.

26 - الديارات، ص3.

27 - ابو إسحاق، روفائيل، أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، مطبعة شفيق،(بغداد، 1960م)، ص97.

6 – أعياد أخرى

وإلى جانب الأعياد الدينية التي جرى الاحتفال بها في أوقات معينة من السنة فإن هناك أعيادًا عرضية، وإن كانت من أصول فارسية قديمة، احتفل بها العباسيون وعامة أهل بغداد، منها: عيد النيروز أو النوروز، ومعناه: اليوم الجديد[28]، وهو يوم الحادي والعشرين من شهر آذار[29]، وقد نهى العرب المسلمون أهلَ فارس بعد الفتح العربي الإسلامي الاحتفال بهذا العيد، غير أن العباسيين في عصرهم الأول أباحوا الاحتفال به، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا والتهاني، والخليفة يوزع على الناس أشياء من صور مصنوعة من العنبر[30].

وذكرت مصادرنا التاريخية أنه في عهد الخليفة هارون الرشيد سك الوزير جعفر البرمكي دنانير بزيادة مائة دينار في دينار واحد[31] كان يفرقها على الناس في أعياد النيروز والمهرجان، وقد وصفها الشاعر بقوله:

وأصفر من ضرب دار الملوك يلوُحُ على وجهه جعفرُ

يزيد على مائة واحدًا متى يُعطَهُ مُعسرٌ يوسِرُ[32]

---

28 - النويري، نهاية الارب في فنون الأدب، جـ1، ص178.

29 - متز، الحضارة الإسلامية، ص287.

30 - محفوظ: حسين علي، النوروز في الادب العربي، مجلة التراث الشعبي ع8، سنة 1964م، ص11.

31 - قال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: «وقيل: لما نكبت الْبَرَامِكَةُ، وُجِدَ فِي خَزَائِنِ جَعْفَرٍ جَرَّةٌ فِيهَا أَلْفُ دِينَارٍ فِي الدِّينَارِ مِائَةُ دِينَارٍ». يعني أنه سكَّ دنانير لنفسه، كل دينار منها يساوي ألف دينار مما كانت تتعامل به العامة وقتها.

32 - الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص241، النبراس، ص39، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ7، ص156. وتصحيح الأبيات من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي. ترجمة أبي جعفر البرمكي، 4 / 833 .

أما المهرجان فكان حلوله بعد عيد النوروز بمائة وأربعة وتسعين يومًا، ويُعد أول أيام الشتاء، وظل إلى جانب النوروز أكبر الاعياد، وكان الناس يتهادون فيه، وتخلع في هذا العيد على القواد وكبار رجال الدولة ملابس الشتاء، وكان العامة يغيرون فيه الفرش والثياب، وكثيرًا من الملابس، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه للخليفة[33].

وهكذا يتبين لنا مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بتلك المواكب والمناسبات حرصًا منهم على استمرارية حالة الفرح والغبطة في نفوس العامة.

وهذا الاهتمام ليس قاصرا على بغداد، وإنما يمتد على مساحة البلدان التابعة للخلافة العباسية، كما نجده في كلام القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) عن تاريخ الكنيسة في الإسكندرية مثلا.

ونلمح في ثنايا ما نقرؤوه من أخبار ، وبخاصة في كتاب الديارات، تلك الحرية الدينية والاجتماعية التي كانت سائدة في زمن الخلافة العباسية، كما نجده عن كلام الشابشتي في دياراته على دير أشموني[34] ، الذي بني على اسم امرأة ودفنت فيه. ويقع في منطقة تعرف بقُطْرَبُّل[35]، غربي دجلة. وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول، وهو من الأيام العظيمة ببغداد، يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم، ولا يبقى أحد من أهل التطرب واللعب إلا خرج إليه، فمنهم في الطيارات[36] ومنهم في الزبازب والسُّمَيْريات[37]، كل إنسان بحسب قدرته. ويتنافسون فيما يظهرونه

---

33 - الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، ص146.

34 - ص 46 .

35 - قال ياقوت الحموي عنها في معجمه للبلدان: كلمة أعجمية: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمّارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها.

36 - سفن نهرية سريعة الجريان.

37 - الزبازب: نوع من السفن النهرية الصغيرة. وكذلك السميريات صربٌ من السفن، وتنوع التسميات لتنوع الأحجام والوظائف.

هنالك من زيهم، ويباهون بما يعدونه لقصفهم[38]، ويعمرون شطه وأكنافه وديره وحاناته. ويضرب لذوي البسطة منهم الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيان. فيظل كل إنسان منهم مشغولًا بأمره، ومكبًا على لهوه؛ فهو أعجب منظر وأطيب مشهد وأحسنه».

وفي الكلام على دير مارجرجس[39]، يقول الشابشتي: «هذا الدير بالمَزْرَفَة. وهو أحد الديارات والمواضع المقصودة. والمتنزهون من أهل بغداد يخرجون إليه دائمًا في السُّمَيْريات، لقربه وطيبه. وهو على شاطىء دجلة. والعَروب بين يديه، والبساتين محدقة به، والحانات مجاورة له. وكل ما يحتاج إليه المتنزهون فحاضر فيه. والمزرفة، من أحسن البلاد عمارة، وأطيبها بقعة، وبها من البساتين ما ليس ببلد من البلدان».

وهكذا لو قرأنا ما ذكر في الديارات (الأديرة) المذكورة في كتاب الشابشتي سنجد أنها كانت متنزهات لسكان بغداد مسلميهم ومسحييهم ، صالحيهم وفاسقيهم، لشعرائهم ولأهل المجون منهم، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن طبيعة المجتمع العباسي، وأن الدولة لم تكن تتدخل في اختيارات الناس الفردية، حتى لو كانت مجونا وخمرا، وبخاصة أن الأديرة هي أماكن خاصة بالنصارى، والخمر عندهم ليست حراما، ولا يحق للمسلم أن يمنعهم من شربها أو الاتجار فيما بينهم بها، وبالتالي كانت هذه الديارات أماكن يُشرب فيها الخمر، لذلك كان يقصدها فساق المسلمين لأجل شرب الخمر، فلا يُنكر عليهم من أهل الحسبة، بخلاف ما لو كانت تباع علنا في شوارع بغداد.

---

38 - أي لطعامهم وشرابهم ولهوهم، يقال: قصف الرجل: أقام في الطعام والشراب واللهو.

39 - الديارات ص 69.

كما أن الكتاب يذكر جملة كبيرة من القصائد النادرة والتي لا توجد في غيره، ومنها لشعراء ضاعت دواوينهم، كما يذكر شذرة لا بأس بها عن الموسيقى والغناء الذي كان في زمن العباسيين، ومنها أخبار تتعلق بالرسومات والتصاوير، وبأساليب العيش. لذلك يعتبر هذا الكتاب سجلا تاريخيا، اجتماعيا، أدبيا، من الطراز الأول. وقد أفاض الأستاذ كوركيس عواد محققه في الكلام على أهميته في مقدمته التي صنعها والتي جاوزت الخمسين صحيفة أجاد فيها وأفاد.

والذي يعنينا في هذا الموضع هو ذلك التكامل الاجتماعي بين شتى مكونات المجتمع العباسي في تلك الفترة، والذي كنا نراه في المشاركة العامة في المناسبات الدينية لمكونات المجتمع، على ما سبق ذكره من كتاب الديارات والكلام على الأعياد العامة.

7 – وظائف أهل الذمة في الدولة العباسية

من البدهي جدا أن يأخذ أبناء المجتمع العباسي دورهم في تنظيمه وإدارته، وبخاصة فيما يتعلق بالشؤون الدينية لكل مكون منهم، وهو ما يؤكد قوة الحرية الدينية التي كانت تصبغ الحياة العامة، والمستمدة من فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم هاجر من مكة التي ضاقت ذرعا بعقيدة غير ما توارثته عن آبائها، إلى المدينة المنورة (يثرب) التي كانت تضم العرب الوثنيين واليهود من أهل الكتاب، ثم انضم إليهم المسلمون، فلم تضق القيادة الجديدة للمدينة ذرعا بهذا التعدد بل نظمته في وثيقة اعتبرت أول وثيقة دستورية تنظم مجتمعا متعدد العقائد في العالم.

وظل هذا الاستيعاب المجتمعي سمة ثابتة في مجتمع الدولة المسلمة، حتى في أحلك ظروف الحرب ، كما رأيناه في رحلة ابن جبير الأندلسي التي كانت زمن احتدام الحروب بين

جيوش المسلمين بقسادة صلاح الدين الأيوبي وبين جيوش الفرنجة الغازية، يقول ابن جبير[40]: «ومن أعجب ما يُحَدَّثُ به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.

شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك، خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكَرَك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا، وهو سَرارةُ أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يُذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه، وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق على عكة كذلك، وتجار النصارى أيضا لا يُمنعُ أحدٌ منهم ولا يُعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة إهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تُعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال: سلما أو حربا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه، والله يعلي كلمة الإسلام بمنه»

ومن مظاهر ذلك الاستيعاب المستمر للمجتمع لكل المكونات ما جاء في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي عند الكلام على نيابة دمشق وتنظيماتها وتراتيبها الإدارية،

[40] - رحلة ابن جبير، ص 201 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نسخة دار الكتاب العربي ودار الكتاب المصري.

والكلام على أرباب الوظائف الرسمية، فذكر منها: «الصنف الخامس وظائف زعماء أهل الذمة بها: وفيها بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك النصارى الملكانية، ورئيس اليهود القرّايين والربّانيين، ورئيس السامرة، ولكنه مقيم بمدينة نابلس التي هي مدينتهم المعظمة عندهم، وإلى طورها حجّهم، وله نائب مقيم بدمشق».

قلت – القائل القلقشندي –: وربما كتب عن السلطان من الأبواب الشريفة بتواقيع ومراسيم بالحلّ على ما تصدر ولايته عن النائب، وربما كتب به عنه ابتداء[41].

فعرفنا بأن المجتمع كان يحوي المجموعات الدينية التالية: بالإضافة إلى المسلمين: النصارى بمذاهبهم الأساسية: الملكيين واليعاقبة، واليهود بفرقهم الأساسية، إلى عقائد أخرى لكنها لم تكن بحجم تجمعات أهل الكتاب.

وقد عرض القلقشندي في كتابه تاريخا للنصرانية وكنائسها وبطارقة كل كنيسة منها[42]، مبتدءً ببطارقة كنيسة الاسكندرية، من مرقص الإنجيليّ: تلميذ بطرس الحواريّ، الذي أرسله المسيح عليه السّلام إلى رومية، وصولا إلى «الشيخ الأمجد (رفائيل)» الذي ولي الكرسي البطريركي للإسكندرية سنة (812هـ)، قال القلقشندي: «وهو القائم بها إلى الآن»، أي: القرن التاسع هجري، إذ إن القلقشندي متوفى سنة (821هـ)، هذا يعني أنه عُمِّر أزيد من مائة سنة، لأنه مكث بطريركا حوالي تسعين سنة.

وأثناء الكلام على كنائس الإسكندرية في ظل الإسلام، تناول بعض اهتمامات الخلفاء العباسيين بكنيسة الاسكندرية، ويعود سبب اهتمام العباسيين بها إلى دور البطريرك في إطلاق

---

41 - (5 / 295): الجملة الخامسة (في ذكر بطاركة الإسكندريّة، الذين عن توليتهم تنشأ ولاية ملوك الحبشة).

42 - صبح الأعشى، تحت عنوان: الجملة الخامسة في ذكر بطاركة الإسكندرية الذين عن توليتهم تنشأ ولاية ملوك الحبشة ج 5 / ص 295 حتى 309.

سراح نائب أبي العباس السفاح من سجن عبد الملك بن موسى نائب الخليفة مروان الجعدي، آخر خلفاء بني أمية وذلك بعد مقتل الأخير سنة 132هـ في دير أبو صير[43]. من هنا صارت للنصارى مكانة عند العباسيين، فعاملوهم بالجملة معاملة مميزة، ولا ينفي ذلك فترات كانت العلاقة تسوء فيها تبعا لطبيعة علاقة الدولة العباسية مع الدولة البيزنطية.

ومن أمثلة المعاملة الحسنة ما كان في زمن هارون الرشيد، ففي سنة اثنتين وسبعين ومائة (172هـ) من خلافته «قُدِّم في البطركية (مرقص الجديد) فأقام عشرين سنة وسبعين يوما. وفي أيامه رسم الرشيد بإعادة كنائس الملكية التي استولى عليها اليعاقبة ثانيا إليهم»، «وفي أيامه عُمِرَت الديارات وعادت الرهبان إليها».

وسبق معنا الكلام أن الخليفة المأمون أراد أن يُصدر كتابًا لأهل الذمة؛ يضمن لهم حرية الاعتقاد، وحرية تدبير كنائسهم؛ بحيث يكون لكل فريق منهم –مهما كانت عقيدتهم، ولو كانوا عشرة أنفس– أن يختاروا بطْرِيركهم، ويعترف له بذلك، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شغبًا، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب. وعدوله دليل صريح في عدم تدخل الدولة في شؤون النصارى الخاصة، والدينية منها على الخصوص.

7 – مراسم تثبيت زعماء أهل الذمة

أثناء كلامه عن الفرمانات التي كانت تصدر بحق أرباب الوظائف بالديار المصرية، ذكر القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى)[44] نماذج عن الفرمانات التي كانت تصدر «زعماء أهل الذمة» وما الذي كان يكتب في مخاطبتهم من قبل رأس الدولة، وأنه «يكتب لجميعهم تواقيع في قطع

---

[43] - ينظر (البداية والنهاية ، أحداث سنة 132هـ).

[44] - 11 / 378 .

الثلث بألقابهم السابقة مفتتحة بأما بعد حمد الله»، مبينا أن هذا الضرب يشتمل على ثلاث وظائف: الوظيفة الأولى رآسة اليهود، والثانية رئاسة النصارى الملكيين، والثالثة رئاسة النصارى اليعاقبة.

رئاسة اليهود[45]

وهذه الوظيفة «موضوعها التحدث على جماعة اليهود والحكم عليهم والقضاء بينهم على مقتضى دينهم وغير ذلك». وكانت طوائف اليهود في الدولة ثلاثٌ: «الربانيون، والقراؤون، والسامرة، وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم وهو يحكم على الطوائف الثلاث»، وقد أورد القلقشندي ثلاثة نماذج لمراسيم تثبيت رؤساء اليهود، اخترت منها «نسخة توقيع برآسة اليهود من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر[46]، وهي:

أما بعد حمد الله الذي جعل ألطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لذمتها من اليهود رئيسا فرئيسا، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى، وتبهج لهم نفوسا كلما قدمت عليهم نفيسا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي والرسول الذي أجمل الوصية بالملي والذمي، وعلى آله وصحبه ما هطل وبْلِيّ وما نزل وَسْمِيّ. فإن معدلة هذه الدولة تكتنف الملل والنحل بالاحتياط، وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط، وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط، وتضمهم كما ضمت البنوة إلى جناح النبوة الأسباط، لا

---

45 - ينظر صبح الأعشى 11 / 379 وما بعدها.

46 - تنظر ترجمته في (فوات الوفيات: 2 / 179)، ومما جاء فيها: « وكان بارع الكتابة، له في قلم الرقاع طريقة غريبة حلوة، وكان ذا مروة وعصبية، ولد في المحرم سنة عشرين وستمائة، وتوفي بالقاهرة سنة اثنتين وتسعين وستمائة (620 – 692هـ)..

تزال ترقب الإلّ والذمة في المسلمين وأهل الذمة، وتقضي لهم بحسن الخيرة ورعاية الحرمة، وتبيحهم من أمر دينهم ما عليه عوهدوا، وتمنحهم من ذلك ما عليه عوقدوا، وتحفظ نواميسهم بأحبار تحمد موادُّهم إذا شوفهوا، وتحسن مرآهم إذا شوهدوا، من كل إسرائيلي أجمل للتوراة الدراسة، وأحسن لأسفار أنبيائه اقتباسه وأجْمَلَ التماسه، ومن نَبَهَتْهُ نباهته للتقدمة، فما طعم اجتهاده يوما حتى صار وجه الوجاهة في قومه ورأس الرآسة، فأصبح فيهم معدوم النظير، معدودا منهم بكثير، وموصوفا بأنه في شرح أسفار عبرانية حسن التفسير، واستحق من بين شيعته أن يكون رأس الكهنة، وأن تصبح القلوب في مجامعهم بحسن منطقه مرتهنة، وبأن للجهالة بتثقيفه لشيعته تحجب عقائدهم عن أن تغدو ممتهنة.

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بهجة، ولجسد هذا التفويض مهجة، ولمادح هذا الثناء العريض لهجة، ولِعَيْنِ هذا التعيين غمضها، ولِيَدِ هذه الأيادي بسطها وقبضها، ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيها ومقتضها، ومن أُدنيت قطاف النعماء ليد تقدمته على غيظ من غص منها واجتنى غضها، اقتضى حسن الرأي الشريف أن يميز على أبناء جنسه حق التمييز، وأن يجاز له من التنويه والتنويل أجل ما جيز.

ورسم بالأمر الشريف، لا زال يختار فيجمل الاختيار، ويغدو كالغيث الذي يعم بنفعه الربا والوهاد والأثيار والاشجار، أن تُفوضَ إليه رآسة اليهود على اختلافهم من الربانيين والقرائين والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلأها، فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروسهم بالتدبير لا تَذوى، ومقاصدهم لا يمازجها شك ولا شكوى، ولينزل عليهم مِنًّا مَنًّا يسليهم صنعا، حتى لا يفارقوا المن والسلوى، وليتق الله فيما يذره ويأتيه، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلابها تأتيه، وإياه والتيه، حتى لا يقال كأنه بعد لم يخرج من التيه.

وجماعة الربانيين فهم الشعب الأكبر والحزب الأكثر، فعامِلهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر، ولكونك منهم لا تَمِلْ معهم على غيرهم فيما به من النفس الأمارة تؤمر.

وجماعة القرائين فهم المعروفون في هذه الملة بملازمة الأدلة، والاحتراز في أمر الأهلة، فانصب لأمرهم من لم يتَوَلَّه حين يَتَوَلَّه، ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج عن ذلك ولا يحرج، ولا يلجم منهم بلجام من نار إنكار من في ليلة سبته بيته عليه لا يسرج.

والسامرة فهم الشعب الذين آذن التنظيف أهله بحروبه، ولم يك أحدهم لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه، فمن قدرت على رده بدليل من مذهبك في شروق كل بحث وغروبه، فارده من منهج تحيده عن ذلك وهروبه، وإلا فقل له يا سامري: بصُرتُ بما لم تُبصروا به، وليكن حكمك فيهم بالبت، وارفق بهم فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، فإياك أن تكون ذلك المنبت، ومرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدو أحد منهم في السبت، واجعل أمور عقودهم مستتبة، وأحسن التحري والتحرير لهم في إتقان كل كَتَبَة، ولا تختر إلا الأعيان، من كل خزان وديان. ومن كان له من داود عليه السلام لحمة نسب، وله به حرمة نسب، فارع له حقه، وأصحبه من الرفق أكرم رفقة، والجزية فهي لدمائكم وأولادكم عصمة، وعلى دفاعها لا دافعها وصمة، ولأجلها ورد من آذى ذميا كنت خصمه، وهي ألم من السيف إجارة، وهي أجرة سكنى دار الإسلام كما هي لاستحقاق المنفعة بها إجارة، فأدوها وبها نفوسكم فادوها ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فعدوا ألطاف الله بها ولا تعدوها، وداوم على «مه» زجرا لتارك علامة، ومن قصد منها خلاصه فقل له في الملإ ماذا خلاصه، ومن ركن في أمرها إلى الإخلاد والإخلال وسكن إلى الإهمال ولم يرض بأن راية الذلة الصفراء على رأسه تشال، فأوسعه إنكارا، وألزمه منها شعارا، وإن قام بنصره منهم معشر خشن، فأرهم بعد العلامة خشكارا، وخذهم بتجنب الغش الذي هو للعهد مغير

ومغيب، واكفف من هو بما ينافيه معير ومعيب، وأما من هو مجيب لذلك فهو لقصده محبب، وانقل طباعهم عن ذلك، وإن أبت عن التناقل فانتقامنا يتلو ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ وقد علم أن الذي تتعاطونه من نفخ في البوق إنما هو كما قلتم للتذكار، فاجتهدوا أن لا يكون لتذكار العجل الحنيذ الذي له خوار. هذه وصايانا لك ولهم، فقل لهم هذه موهبة الدولة وإحسانها إليكم، ولطفها بكم وعاطفتها عليكم، وبصرهم بذلك كلما تلا إحساننا إليهم ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾»[47].

الوظيفة الثانية

8 – مرسوم تثبيت بطريرك الملكيّة[48]

«أمّا بعد حمد الله منوّع الإحسان، لأولي الأديان، ومؤصّله ومفرّعه لكلّ طائفة ولكل إنسان، والصلاة على سيدنا محمد الذي أباد الله به من أباد وأبان من عهده وذمّته مَنْ أبان، فإنّ الطائفة الملكيّة من النصارى لمّا كانت لهم السابقة في دينهم، ولهم أصل الرآسة والنّفاسة في تعيينهم، وما برحت لهم في الكلاءة والحفظ قدم السابقة، ورتبة بملوكهم الرّومانيّة سامقة، وما زالت لهم خدم الدول إلى أغراضها متساوقة ومتسابقة، ولهم جِوارٌ مشكور، وتبتّل مشهور، وعليهم وصايا من الملوك في كل ورود وصدور، ولهم من نفوسهم مزايا تستوجب احترامهم، وتستدعي إكرامهم، وكان لا بدّ لهم من بطريرك يلاحظ أحوالهم أتمّ الملاحظة، ويستدعي لهم من الدّولة أعظم محافظة، ويحفظ نواميس قبيلهم، ويحسن دراسة أناجيلهم، ويعرّفهم قواعد معتقداتهم، ويأخذهم بالدّعاء لهذه الدولة القاهرة في جميع صلواتهم، ويجمعهم على سداد،

[47] - صبح الأعشى: 11 / 378 - 383 .
[48] - صبح الأعشى : 11 / 387.

ويفرّقهم على مراد، وكان البطريرك (فلان) هو المتّفق بين طائفته على تعيينه، والمجمع على إظهار استحقاقه وتبيينه، والذي له مزايا لو كان فيه واحدة منها لكفته في التأهيل، ولرفعته إلى منصبه الجليل.

فلذلك رسم.... الخ-

لا برح يعطي كلّ أحد قسطه، ويدخل كلّ لأبوابه ساجدا وقائلا حطّة «1» - أن يباشر بطركيّة النصارى الملكية على عادة من تقدّمه من البطاركة السالفة بهذه الدولة.

فليحط أمورها الجزئيّة والكليّة، والظاهرة والخفيّة، وليأخذهم بما يلزمهم من قوانين شرعتهم، وكلّ ما يريدون من حسن سمعتهم؛ وأما الدّيرة والبيع والكنائس التي للملكية فمرجعها إلى صونه، وأمرها مردود إلى جميل إعانته وعونه؛ والأساقفة والرّهبان فهم سواد عين معتقده، وخلاصة منتقده، فلا يخلهم من تبجيل، وحسن تأهيل، وتتقدّم إلى من بالثغور من جماعتك بأن لا يدخل أحد منهم في أمر موبق، ولا في مشكل موثق، ولا يميلون كلّ الميل إلى غريب من جنسهم، وليكن الحذر لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم، ولا يشاكلون رسولا يرد، ولا قاصدا يفد؛ وطريق السلامة أولى ما سلك، ومن ترك الدخول فيما لا يعنيه تُرك؛ هذه جملة من الوصية لامعة أفلح واهتدى من بها استنار، ورشد من لها استشار؛ والله يوفّقك في كل مقصد تروم، ويجعلك بهذه الوصايا تقول وتقوم».

الوظيفة الثالثة

9 – مرسوم تثبيت بطريرك النصارى اليعاقبة[49]

«أما بعد حمد الله الذي أظهر دين الإسلام على الدّين كلّه، وأصدر أمور الشرائع عن عقد شرعه وحلّه، وصيّر حكم كلّ ملة راجعا إلى حكم عدله، والشهادة له بالوحدانيّة التي تدلّ على أنه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس شيء كمثله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعظم أنبيائه وأكرم رسله، وأشرف ولد آدم ونسله، المصطفى في علم الله من قبله، ووسيلته في التوراة من غرور الشيطان وخذله، والذي أطفأ الله ببركته نار نمروذ عن إبراهيم وجعلها بردا وسلاما وأجلّه من أجله، وبشّر به عيسى بن مريم عبد الله وابن أمته وأقرّ موسى بن عمران كليم الله بفضله، وعلى آله الطيّبين الطاهرين من فروع أصله، وأصحابه سامعي قوله، وتابعي سبله.

فإنّ الله تعالى لما ارتضى الإسلام دينا، وأفضى بالملك إلينا وقضى لنا في البسيطة بسطة وتمكينا، وأمضى أوامرنا المطاعة بشمول اليُمن شمالا ويمينا، لم نزل نولي رعايانا الإحسان رعاية وتوطينا، ونديم لأهل الذمّة منّا ذمّة وتأمينا؛ وكانت طائفة النّصارى اليعاقبة بالديار المصرية لهم من حين الفتح عهد وذمام، ووصيّة سابقة من سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ولا بدّ من بطريرك يرجعون إليه في الأحكام، ويجتمعون عليه في كلّ نقض وإبرام.

ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس، المبجّل، المكرّم، الكافي، المعزّز المفخّر، القدّيس، شمس الرّآسة، عماد بني المعمودية، كنز الطائفة الصّليبيّة، اختيار الملوك والسلاطين، (فلان)، وفّقه الله، هو الذي تجرّد وترهّب، وأجهد روحه وأتعب، وصام عن المأكل والمشرب، وساح فأبعد، ومنع جفنه لذيذ المرقد، ونهض في خدمة طائفته وجدّ، وخفض لهم الجناح وبسط

[49] - صبح الأعشى: 11 / 390.

الخدّ، وكفّ عنهم اليد، واستحقّ فيهم التبجيل لما تميّز به عليهم من معرفة أحكام الإنجيل وتفرّد- اقتضى حسن الرأي الشريف أن نلقي إليه أمر هذه الفرقة ونفوّض، ونبدّلهم عن بطريكهم المتوفّى ونعوّض.

فلذلك رسم بالأمر الشريف- لا برحت مراسمه مطاعة، ومراحمه لإنزال أهل كرمها بيعتها مرعيّة غير مراعة - أن يقدّم الشيخ شمس الرآسة المذكور على الملّة النّصرانيّة اليعقوبيّة، ويكون بطريركا عليها، على عادة من تقدّمه وقاعدته بالديار المصرية، والثّغور المحروسة، والجهات التي عادته بها إلى آخر وقت.

فليسلك سبيل السّوا، ولا يملّك نفسه الهوى، وليتمسّك بخوف الله تعالى إن فعل أو نوى، أو أخبر عن الحواريّين أو روى؛ فالعليم مراقِب، والعظيم معاقِب، والحكيم أمر أولي العقول بالفكرة في العواقب، والحاكم غدا بحقوق الخلق غدا يطالب؛ والظّلم في كلّ ملّة حرام والعدل واجب، فليستوف الإنصاف بين القويّ والضعيف والحاضر والغائب، وليقصد مصلحتهم وليعتمد نصيحتهم، **وليمض على ما يدينون به بيوعهم وفسوخهم ومواريثهم وأنكحتهم**، وليقمع غاويهم، وليسمع دعاويهم، وليلزمهم من دينهم بما وجدوه، فظنّوه واعتقدوه، وليتّبع سبيل المعدلة فلا يعدوها؛ عائدة إليه أمور القسّيسين والرّهبان، في جميع الدّيرة والكنائس بسائر البلدان، ولا يعترض عليه فيما هو راجع إليه من هذا الشان. ولا يقدّم منهم إلى رتبة إلا من استصلحه، ولا يرجح إلى منزلة إلا من رشّحه إليها ورجّحه، متّبعا في ذلك ما بيّنه له العدل وأوضحه، مرتجع الرتبة ممن لم تكن الصدور لتقدمته منشرحة، مجمعا لغيره في الإيراد والإصدار على اعتماد المصلحة؛ وقد أوضحنا له ولهم سبيل النجاة فليقتفوه، وعرّفناهم بالصواب والخيرة لهم إن عرفوه، وليسأل الله ربّه السلامة فيما له يفعل وبه يفوه؛ والعلامة الشريفة أعلاه».

10 – ألقاب أرباب الوظائف[50]،

قال القلقشندي: «والمشهور منهم طائفتان: **الطائفة الأولى النصارى**. والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثمانية ألقاب.

الأول– الباب – (البابا) بباءين موحدتين مفخمتين في اللفظ. وهو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانيّة بمدينة رومية.. به عندهم يناط التحليل والتحريم، وإليه مرجعهم في أمر دياناتهم .. وأصله (البابا) بزيادة ألف في آخره، والكتّاب يثبتونها في بعض المواضع ويحذفونها في بعض، وربما قيل فيه (البابه) بابدال الألف هاء.

وهي لفظة روميّة معناها (أبو الآباء). وأوّل ما وضع هذا اللقب عندهم على بطرك الإسكندرية ..، وذلك أن صاحب كلّ وظيفة من وظائفهم الآتي ذكرها كان يخاطب من فوقه منهم بالأب، فالتبس ذلك عليهم فاخترعوا لبطرك الإسكندرية (البابا) دفعا للاشتراك في اسم (الباب)، وجعلوه أبا للكلّ، ثم رأوا أن بطرك رومية أحقّ بهذا اللقب: لأنه صاحب كرسيّ بطرس كبير الحواريّين ورسول المسيح عليه السّلام إلى رومية، وبطرك الإسكندرية صاحب كرسيّ مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس الحواريّ المقدّم ذكره، فنقلوا اسم (البابا) إلى بطرك رومية، وأبقوا اسم البطرك على بطرك الإسكندرية.

الثاني– البطرك – بباء موحدة مفتوحة ثم طاء مهملة ساكنة وبعدها راء مهملة مفتوحة ثم كاف في الآخر. وهو لقب على القائم بأمور دين النّصرانية. وكراسيّ البطاركة عندهم أربعة:

---

[50] - صبح الأعشى (5 / 443) : القسم الثاني من ألقاب أرباب الوظائف.

كرسيّ برومية، وهو مقر الباب المقدّم ذكره. وكرسيّ بأنطاكية من بلاد العواصم. وكرسيّ بالقدس. وكرسيّ بالإسكندرية.

وقد غلب الآن بالديار المصرية على رئيس النصارى اليعقوبيّة بالديار المصرية وهو المعبر عنه في الزمن القديم ببطرك الإسكندرية، ومقرّه الآن بالكنيسة المعلقة بالفسطاط.

وأصله البطريرك بزيادة ياء مثناة تحت مفتوحة بعدها راء ساكنة، وهو لفظ روميّ ..

الثالث- الأسقفّ - بضم الهمزة والقاف. وهو عندهم عبارة عن نائب البطرك.

الرابع- المطران - بكسر الميم. وهو عبارة عن القاضي الذي يفصل الخصومات بينهم.

الخامس- القسّيس - بكسر القاف. وهو القاريء الذي يقرأ عليهم الإنجيل والمزامير وغيرها.

السادس- الجاتليق - بجيم بعدها ألف ثم تاء مثناة فوق ولام ثم ياء مثناة تحت وقاف في الآخر. وهو عندهم عبارة عن صاحب الصّلاة. (الخوري في أيامنا).

السابع- الشّمّاس - بشين معجمة في الأوّل وسين مهملة في الآخر وميم مشدّدة. وهو عبارة عندهم عن قيّم الكنيسة.

الثامن- الراهب - وهو عبارة عن الذي حبس نفسه على العبادة في الخلوة».

أما الطائفة الثانية فهم اليهود ، قال القلقشندي: «والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثلاثة ألقاب:

الأول- الرئيس - وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى، وقد تقدّم الكلام على لفظ الرئيس وأنه يقال بالهمز وبتشديد الياء.

الثاني- الحزّان - بحاء مهملة وزاي معجمة مشدّدة وبعد الألف نون. وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم.

الثالث- الشِّلِيَحْصَبُّور- بكسر الشين المعجمة واللام وفتح الياء المثناة تحت وبعدها حاء مهملة ساكنة ثم صاد مهملة مفتوحة وباء موحدة مشدّدة مضمومة بعدها راء مهملة. وهو الإمام الذي يصلّي بهم».

هذه على العموم الوظائف الرسمية لأهل الكتاب في الدولة الإسلامية، وكانت المخاطبات الرسمية تتم بطريقة تظهر احترام هذه المواقع وتقديرها.

11 - الألقاب التي كان يخاطب بها زعماء أهل الذمة

كانت المخاطبات الرسمية توجه إلى أصحاب هذه المراتب الدينية مقرونة بعبارات التقدير والاحترام، كما نجده عند القلقشندي[51] في ذكره لأرباب الولايات من زعماء أهل الذمة، وهي رآسة اليهود وبطركية النصارى، قال:

«أما رئيس اليهود، فالذي رأيته لهم من ألقابه في عهد قديم، كتبه ابن الزكيّ في الدولة الأيوبية، قال في ألقابه: «الرئيس، الأوحد، الأجلّ، الأعزّ، الأخصّ، الكبير، شرف الداوودیین، فلان».

[51] - صبح الأعشى (12 / 289) ، الصنف السابع من أرباب الولايات بالنيابات الشامية ، زعماء أهل الذّمة.

وقال: «وأما بطرك النّصارى، فرأيت لهم فيه طريقتين:

الطريقة الأولى: البطرك المحتشم، المبجّل، فلان، العالم بأمور دينه، المعلّم أهل ملّته، ذخر الملّة المسيحيّة، كبير الطائفة العيسويّة، المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين، وفقه الله تعالى.

الطريقة الثانية: مجلس القسّيس، الجليل، الرّوحانيّ، الخطير، المتبتّل، ابن المطران، النّاصب، الخاشع، المبجّل، قدوة دين النّصرانيّة، فخر الملة العيسويّة، عماد بني المعموديّة، جمال الطائفة الفلانية، صفوة الملوك والسلاطين، فلان، أدام الله تعالى بهجته» .

12 – التسامح الديني في الدولة المسلمة

ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وبذلك كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمنا طويلا. كان **(ابن أثال) الطبيب النصراني** طبيب معاوية الخاص، وكان **(سرجون)** كاتبه. وقد عين مروان **(اتناسيوس)** مع آخر اسمه **(إسحاق)** في بعض مناصب الحكومة في مصر، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة.

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عن الخلفاء (**جرجيس بن بختيشوع**)، وكان مقربًا من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده.

وكان (**سلمويه بن بنان**) النصراني طبيب المعتصم، ولما مات جزع عليه المعتصم جزعًا شديدًا، وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته!

وكان (**بختيشوع بن جبرائيل**) طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه، حتى إنه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال، وكثرة المال وكمال المروءة.

وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم. وكلنا يعلم مكانة (**الأخطل**) في العهد الأموي.

وكان الأفراد كالخلفاء يصادقون من تروق لهم مصادقتهم بقطع النظر عن دينهم. كان (**إبراهيم بن هلال الصابي**) أي من الصائبة – وهم قوم المجوس لهم ديانة خاصة بهم – قد بلغ أرفع مناصب الدولة، وتقلد الأعمال الجليلة في تقدمه الشعراء، وكانت بينه وبين زعماء الأدب والعلم من المسلمين صلات حسنة، وصداقات وشيجة، حتى أنه لما مات رثاه الشريف الرضي شيخ الهاشميين العلويين ونقيبهم بقصائد خالدة.

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم. كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها، وكان يقول لهم: ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية.

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية. قال خلف بن المثنى: لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علمًا ونباهة، وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحِمْيَرِيُّ الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجامع (وهو خارجي صُفَّرِيّ)، وبشّار بن بُرد (وهو شعوبي خليع ماجن)، وحمّاد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيَّد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحرّاني الشاعر (وهو صابئي)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في ديانتهم ومذاهبهم!

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها. فمنذ العهد الأموي كانت للنصارى إحتفالاتهم العامة في الشوارع تتقدمها الصُلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية. وقد دخل **(البطريرك ميخائيل)** مدينة الإسكندرية في احتفال رائع وبين يديه الشموع والصُلبان والأناجيل، والكهنة يصيحون: قد أرسل الرب إلينا الراعي المأمون الذي هو مرقس الجديد. وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك.

وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك في يوم عيد الفصح.

ومن الغريب أن مثل هذه المظاهر من الود ظلت حتى في الحروب الصليبية حيث كان الغرب يشن أقسى الحملات التاريخية على بلاد الإسلام باسم الصليب – كما سبق ذكره من كلام ابن جبير –.

وبعد، التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به.

يقول المستر (درابر)[52] الأمريكي المشهور: «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرًا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة».

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر (ولز)[53] في صدر بحثه عن تعاليم الإسلام: «إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها..» إلى أن يقول عن الإسلام: «إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة».

---

[52] - جون وليام دريبر (بالإنجليزية: John William Draper (و. 1811 – 1882 م) هو كيميائي، ومصور، وفيزيائي، ومؤرخ، وكاتب، وأستاذ جامعي من الولايات المتحدة الأمريكية . وكان عضواً في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم . توفي عن عمر يناهز 71 عاماً.

[53] - هربرت جورج ويلز (بالإنجليزية: H. G. Wells مواليد 21 سبتمبر 1866 في كنت، إنجلترا - الوفاة 13 أغسطس 1946 في لندن، إنجلترا، كان روائي وكاتب قصص قصيرة بريطاني. من أشهر أعماله آلة الزمن، الرجل الخفي، جزيرة الدكتور مورو، حرب العوالم وأوائل الرجال على القمر.

ويقول (رينو)[54] في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: «إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير».

وإذا كنا قد توسعنا في التدليل على التسامح الديني في حضارتنا، فإنما نريد أن نرد فرية هؤلاء الغربيين المتعصبين على تاريخنا، بأننا كنا قساة أكرهنا الناس على الدخول في ديننا وعاملنا غير المسلمين بكل مذلة واضطهاد. وكان من الخير لهم أن لا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب، فإن مخازيهم في التعصب الديني ضد المسلمين في الحروب الصليبية وفي إسبانيا وفي العصر الحاضر مما يطأطؤون منه رؤوسهم حياء وخجلًا، بل إن مخازيهم في اضطهاد بعضهم لبعض مما لا ينكره كل دارس للتاريخ.

ألست ترى معي أن قول غوستاف لوبون: «إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم» هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافًا للمسلمين؟!

انتهى

[54] - جوزيف توسان رِينُو بالفرنسية Joseph Toussaint Reinaud (1210 - 1284 هـ / 1795 - 1867 م) هو مستشرق فرنسي. أخذ العربية عن دي ساسي. له تاليف في ميدان الآثار الإسلامية والحروب الصليبية والفيلولوجيا العربية.